ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

مملكة غرناطة النصرية في مواجهة الطاعون في القرن 8هـ/14م

The Black Plague In The Kingdom Of Granada In The VIII H- XIV AD

الدكتور بلجة عبد القادر، جامعة جيلالي ليابس-سيدي بلعباس
beldjaabdelkader68@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/05/04 تاريخ القبول: 2020/09/23 تاريخ النشر: 2020/09/30

الملخص باللغة العربية: يعتبر مجال البحث في الكوارث الطبيعية التي شهدها المغرب الإسلامي عامة والأندلس خاصة، وما ترتب عنها من مجاعات وأوبئة من أهم مجالات البحث التاريخي المستجدة التي شدت اهتمام الدارسين، فاتخذوا من آثار انتشارها على سلوك وذهنيات الإنسان في بلاد الأندلس مواضيعا لبحوثهم بعدما كانت إلى وقت قريب تشكل بقعة من بقع التاريخ المهمل في العصر الوسيط.

في هذا الإطار سأحاول من خلال هذه الدراسة تقديم صورة مقربة لأخطر طاعون ضرب الأندلس في القرن 8ه/ 14م (الطاعون الأسود أو الجارف) بالوقوف عند أسباب انتشاره، وسبل مواجهته من طرف مختلف شرائح المجتمع الأندلسي، وكذلك تأثير الطاعون في مجلات الحياة .

الكلمات المفتاحية: الطاعون: الأوبئة: العدوى: مملكة غرناطة: القرن الثامن هجري، الأطباء.

Abstract:
The field of research on natural disasters which attended in general the Islamic Maghreb and Andalusia in particular, is one of the most important topics that attracts the intention of researchers on its behavior and mentalities impact on the population in Andalusia

This article aims to shed light on the impacts of the worst disease ever known in Andalousia , the black plague , showing the ways of fighting its spread by the populace.

مقدمة: يعد البحث في موضوع الأوبئة التي اجتاحت بلاد الغرب الإسلامي عامة، والأندلس خاصة، من بين مجالات البحث التاريخي التي شدّت اهتمام الدارسين، لما تركته من آثار على سلوك وذهنيات الإنسان، ولعل من أهم هذه الأوبئة وباء الطاعون الذي لم يكن بمرض جديد، فهو يعود إلى عصور قديمة، ولكن جهل الناس بأسبابه وطرائق مواجهته هو ما جعل مخلفاته تتفوق على مخلفات هجمات الشعوب الهمجية على مراكز الحضارة في العصور الوسطى.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وعليه، سأحاول من خلال هذه الدراسة تقديم صورة مقربة لأخطر طاعون اجتاح الأندلس في القرن8هـ/ 14م (الطاعون الأسود أو الجارف)، وبالتالي سأركز على العناصر الأساسية التالية: عوامل انتشار الطاعون في بلد الأندلس، والإجراءات المتخذة لمواجهته، وما هي نتائجه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الأندلس ؟.

1. الطاعون[1] الأسود[2] في النصف الأول من القرن الرابع عشر ميلادي.

شكل وباء الطاعون الذي ضرب العالم في النصف الأول من القرن 8هـ /14م، والقادم من آسيا خطرا جديا على العالم، مخلفا ما يمكن اعتباره كوارث ديموغرافية كبرى، ومما زاد من نتائجها السلبية عدم تطور الطب بالشكل الذي يتيح محاربة هذه الأوبئة أو على الأقل التقليل من حدتها.[3]

ففي أوائل الثلاثينات من القرن ذاته بدأت تتسرب إلى أوربا أخبار كان يحملها غربيون تشير إلى كوارث أصابت القارة الآسيوية من جفاف وزلزال وقعت بين سنتي 730-732 هـ- 1330-1332م، وفيضانات متتالية وقعت منذ 734 هـ-1334م، تبعتها مجاعات شاملة، ثم توالت تلك الكوارث الطبيعية خلال الأربعينات لترتبط بالطاعون في المنطقة، وعلى الرغم من أن كونها معلومات حافلة بالغموض، فإن المصادر الصينية تحدثت عن تفشي الوباء في الصين في عام 731هـ-1331م، ومنها تحرك نحو أوربا ليقرع أبوابها في 745هـ- سبتمبر 1345، وفي أواخر 747هـ-1347م وصل الطاعون

1- هو مرض وبائي معد تسببه جرثومة تعرف علميا ب Yersinia Pesty نسبة إلى العالم الفرنسي الكسندر ييرسين A. Yersine الذي تمكن في سنة 1894 بهون كنغ من عزل البكتيريا المتسببة في المرض ينظر إلى: (ينظر: Le Goff Jacques, Biraben Jean-Nöel, **(La peste dans le Haut Moyen Âge)**, In: *Annales. Économies, Sociétés, Civilisations*. 24e année, N. 6, 1969. P, 1485.

2- حسب علم الطب المعاصر، فإن الطاعون يظهر بصور ثلاث: الطاعون الدبلي أو الغدد الليمفاوية bubon، وهو أكثر أنواع الطاعون انتشارا- و الطاعون الرئوي (Peste Pneumonique) وهو أخطر أنواع الطاعون - طاعون تلوث الدم يظهر بسبب المضاعفات الناجمة عن النوعين السابقين مما يؤدي إلى تلوث الدم وبالتالي حدوث الجلطة داخل الأوعية الدموية لتظهر فيما بعد بقع سوداء تحت الجلد (الطاعون الأسود)، (ينظر: أحمد العدوي، **الطاعون في العصر الأموي صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2018، ص 26 وما بعدها).

3 - Verlinden Charles ,(**La grande peste de 1348 en Espagne. Contribution A L'étude De Ses Conséquences Economiques Et Sociales)**, In: Revue Belge De Philologie Et D'histoire, Tome 17, Fasc. 1-2, 1938.P 116.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الجارف إلى القسطنطينية المتحكمة في المضيق الذي يصل البحر الأسود بالبحر المتوسط، ثم إلى فرنسا في نفس الفترة ، وإيطاليا في عام 748هـ- أفريل 1348، وفي الشهر الموالي إجتاح الطاعون بلاد الأندلس[4].

ومن بين المؤلفات التي كانت مصاحبة لمعاناة الأندلسيين جراء هذا الطاعون، نذكر كتاب "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" لصاحبه احمد بن علي بن خاتمة الأنصاري باعتباره شاهد عيان في مسقط رأسه الميريا Almeria الواقعة جنوب شرق بلاد الأندلس على هذا الوباء، وسجل ملاحظاته بوصفه طبيبا يستقبل المطعونين ويكشف عنهم ويرشدهم إلى ما يراه مناسبا لأسباب العلاج، ولم يتردد ابن خاتمة في الإعلان عن خلاصة البحث في أسباب هذا الوباء وكيفية التخلص منه، ، وذكر صاحب الكتاب أنه ألفه تلبية لطلب صديق سأله عن حقيقة هذا الطاعون الظاهر ب ألميريا أجابه إلى طلبه[5].

وفي نفس السياق كتب محمد بن عبدالله بن السعيد السلاماني الشهير بابن الخطيب كتابا آخر حول هذا الوباء[6] أسماه "مقنعة السائل عن المرض الهائل" وهو رسالة في الطاعون الجارف الذي اجتاح الأندلس في سنة 748هـ /1348م ذكر فيها عوامل انتشاره، وأعراض ظهوره، وطرق الوقاية منه.

ومن الأطباء الذين ذاع صيتهم في مملكة غرناطة النصرية، والذين كتبوا في هذه الفترة عن الطاعون الجارف، نذكر أبي عبدالله محمد بن علي اللخمي الشقوري نسبة إلى مدينة شقورة (Segura) في شمال غرب مرسية (Murcia)بإسبانيا، حيث ألف كتابا سماه "تحقيق النبأ عن أمر الوبأ"، وهو عبارة عن نصائح طبية من اجل الوقاية من الوباء، وعلاج المصابين بمرضه، حيث يقول المؤلف في رسالته:"وإني رأيت أن أبث في هذا العارض الوبئي نصيحة لإخواننا المسلمين، جعلها الله خالصة

4- روبرت .س. جوتفريد ، **الموت الأسود جائحة طبيعية وبشرية في عالم العصور الوسطى**، (تر: أبو ادهم عبادة كحيلة)، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ،2017، ص-ص 69-74.

5- محمد العربي الخطابي، **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية** (دراسة وتراجم ونصوص)، ج2، بيروت، درا الغرب الإسلامي، 1988، ص 156.

6- ذكر ابن قيّم الجوزية الفرق بين الوباء والطاعون، فقال:" ولما كان الطاعون يكثر في الوباء، وفي البلاد الوبيئة عُبر عنه بالوباء، فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعونا..." (ينظُر إلى: ابن قيّم الجوزية (شمس الدين أبي عبدالله بن أبي بكر بن أيوب)، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 2009، ص 602).

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

لوجهه، ومقربة من رحمته"[7]، وقد تطرق الشقوري في مقدمة نصيحته إلى أسباب الوباء، وطرق التخلص منه عن طريق تقوية الجسم بنظام غذائي صحي وبالأدوية أيضا.

1.1 أسباب انتشار الطاعون الجارف

لقد كتب بن خاتمة في المسألة الثانية من كتابه "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" عن أسباب الوباء فقال: "اعلم أن سببه القريب غالبا هو تغير الهواء المحيط بالإنسان الذي فيه تنفسه... بفعل مخالطة الهواء المعتدل –مثلا- أبخرة حارة يابسة حتى غلبته على كيفياته وعفنته وأحالته عن فصوله وصار إلى نوع البخار المتعفن أقرب منه إلى الهواء المطلق فضلا عن الهواء المعتدل في مطامير الطعام القديمة للاختزان وبقايا السفن، فإن الموجود في هذه الأماكن قد تعفن واستحال بخارا فاسدا قاتلا للحيوان لا يلبث الإنسان إن تنفس فيه أن يهلك من فوره... "[8].

وهو نفس الرأي الذي تبناه الشقوري، فقال عن الطاعون :"سببه فساد مبثوث في الهواء المتنفس فيه، فلذالك آمر الأطباء بإصلاح الهواء ، ... ثم إن هذا الفساد يقع في الأبدان ويؤثر فيها تأثيرا عظيما حسبما شوهد منه"[9]، وبذلك، فإن صاحب رسالة "تقييد النصيحة" ارجع سبب ظهور الطواعين إلى تغير الهواء وتحوله إلى طبيعة ثانية متعفنة وفاسدة، وذلك ما ذكره الطبيب الألماني جون هاكر Jhon Haher، وأساتذة كلية الطب بجامعة مونبلبيه Montpellier، حيث أقروا بأن الأبخرة المميتة تهب من الجنوب، وأن الهواء الفاسد يكون أشدّ فتكا في الصيف و أوائل الخريف، لأن الجو الحار يفتح مسام البدن .[10]

وهكذا، فإن بعض المصادر التاريخية ترجع فساد الهواء إلى الأغذية المخزّنة في ظروف غير صحية، زائد الرطوبة العالية مما يؤدي إلى التكاثر السريع للجراثيم الضارة، ويجعل الطاعون قابلا لأن ينتقل من شخص إلى آخر.

وفي ذات السياق، فسّر **ابن خلدون** المتوفى في سنة809هـ- 1406م ظهور الأوبئة بانتشار العمران وزيادة عدد السكان، وما ينتج عن ذلك من كثرة العفن، حيث ذكر لنا:" أن وقوع الوباء سببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن، والرطوبة الفاسدة، وإذا فسد الهواء

7- لسان الدين بن الخطيب(أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن الخطيب السلاماني)، **مقنعة السائل عن المرض الهائل،** (تح حياة قارة)، الرباط، منشورات دار الأمان، ، 2015، ص 22.

8 - محمد العربي الخطابي، المرجع السابق، ص-ص 166.

9- لسان الدين بن الخطيب ، المصدر السابق، ص 22.

10- روبرت .س. جوتفريد ،المرجع السابق، ص 173.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين..."[11]، وقد يحدث ذلك بعدما ينتقل المرض من القوارض إلى الإنسان بواسطة الحشرات[12]، وهو ما أشار إليه الطبيب **ابن سينا** من قبل، عندما فسر عوامل الوباء، فذكر من العلامات الدالة على قرب حدوث الطاعون:" أن ترى الحشرات المتولدة من العفونة قد كثرت، وأن ترى الفأر والحيوانات التي تسكن قعر الأرض تهرب الى ظاهر الأرض..."[13]، وعلى الرغم من أن ابن سينا ذكر أيضا أن فساد الهواء هو سبب الوباء، فإن تلك الملاحظات تعد أسباب حقيقية للطاعون، فعلاقة الحشرات والقوارض بالوباء المشار إليها تكون على الأرجح أقدم ملاحظة تضمنها مرجع طبي بخصوص الطاعون.

كما أرجعت بعض المصادر الطبية فساد الهواء وانتشار الأمراض الوبائية إلى أسباب فلكية، وما يترتب عنها من توالي الفصول الأربعة من غير أن تكون لها خصائصها المعتادة، كأن تكثر علامات المطر في الشتاء ولا تمطر، فيتغير الهواء، وتنتشر الأوبئة، حيث قال ابن الخطيب في هذا الصدد:"... وإذا ذكرنا حقيقته، فلنذكر سببه، فنقول : له سبب أقصى وهو الأمور الفلكية التي تؤثر في العالم" [14] ، يبدو واضحا أن علاقة فساد الهواء بحركة الأجرام والكواكب لم تجد تفسيرا علميا من قبل النخبة الأندلسية، مما جعلها تسلم برأي المنجمين[15] .

بالإضافة إلى العامل الطبيعي، فإن المصادر المعاصرة للوباء لم تستبعد دور العامل الاقتصادي في تفشي طاعون عام748هـ- 1348م من منطقة إلى أخرى، فالتبادل التجاري عبر الموانئ يعتبر من العوامل الرئيسية في انتشار عدوى هذا المرض، وفي الواقع، فإن **بن خاتمة** كان محقا عندما جعل الحركة التجارية ناقلة للعدوى، إذ قال :"...وقد أخبرني الثقة على ألسنة بعض التجار النصارى

11- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبوزيد الحضرمي)، تاريخ ابن خلدون المسمى، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم في ذوي الشأن الأكبر**، ج1 تحقيق خليل شحادة، بيروت دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2001، ص376.

12- يذكر يارسين Yarsin مكتشف جرثومة الطاعون في سنة 1894 أن المرض يصيب القوارض، ومنها ينتقل إلى الإنسان عن طريق لدغة برغوث حامل للعدوى.(ينظر إلى: Le Goff Jacques, Biraben Jean-Nöel, po.cit, p (1489.

13- احمد، العدوي، المرجع السابق، ص31.

14- لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ص65.

15- على الرغم من المكانة العلمية لإبن الخطيب، فقد وُجدت بعض آثار الذهنية الخرافية المشبعة بالطيرة طريقها إلى قاموسه، فعند وصفه لحادثة غرق أسطول أبي الحسن المريني، قال:" فركب البحر في الفصل المحذور، والوقت المشؤوم" (ينظر إلى، عبدالهادي البياض، الرجع السابق، ص 134).

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

القادمين علينا من مدينة ألميريا من المشرق والترك التي وقع في أهلها هذا الوباء..."[16]، وبالتالي ساعدت الحركة التجارية البحرية في العصور الوسطى على نقل العدوى، فالسفن القادمة من المناطق الموبوءة في أوربا والمشرق كانت تحمل معها الفيروس إما بواسطة القوارض، أو عن طريق البحارة المصابين بالطاعون، ولهذا فالمدن الساحلية عرضة أكثر من غيرها للأوبئة، وهكذا، فإن كانت التجارة ناقلة للخيرات المادية والأفكار والخصوصيات الحضارية، فإنها كذلك تعد ناقلة للمرض والموت.

2.1 تشخيص مرض الطاعون.

إن غياب المعرفة العلمية في هذه الفترة، وانعدام المنهج التجريبي في مثل هذه الحالات، أدى إلى اختلاف الآراء بخصوص الطاعون وسبب شيوعه، ففي الوقت الذي أجمع فيه الأطباء المسلمين - كما سبق ذكره- أن سبب انتشار الأوبئة يعود إلى الرطوبة وفساد الهواء الذي يؤدي إلى فساد الأمزجة والأبدان، نجد أن الأطباء الاسبان نفوا أن يكون الوباء الذي انتشر في شبه جزيرة ايبيريا وبلاد الغرب الإسلامي في النصف الأول من القرن الرابع عشر هو الطاعون رغم الأعراض التي ظهرت على المصابين، فحسب اعتقاداهم أن ظهور الطواعين لا يقتصر على منطقة دون سواها، فلا يمكن أن يجتاح الوباء منطقة، دون بقية بلدان العالم إن كان أصل الوباء هو الهواء الملوث والفاسد الذي يتنفسه الجميع[17]، وفي رده على هذا الرأي قال **بن خاتمة**:"... ما بال الوباء خص قوم دون آخرين على قرب الجوار؟ اعلم البلاد ليست أحوالها متفقة من كل الجهات بل تختلف لأمور عديدة، وهي قربها وبعدها عن البحر... إن بلاد السواحل أكبر حرارة ورطوبة من غيرها من البلاد البرية، ومن جهة أوضاعها.... فالبلاد التي تخترقها الرياح الجنوبية من غير حائل أشد استعدادا لقبول هذا الحادث...، ومن قبل أماكنها في السهولة....فالبلاد التي في السهل هواؤها أكثر استعدادا من البلاد التي في الجبل. .."[18].

وعلى الرغم من أن الطاعون لم يكن بمرض جديد، فهو يعود إلى عصور قديمة، إلا أن أسبابه ظلت محل خلاف بين الناس، ففي فرنسا ذهبت المصادر الطبية إلى ربط انتشار الطاعون بمرض الجذام الذي استشرى في النصف الأول من القرن الرابع عشر ميلادي، فصدرت أمرية ملكية في جوان

16- محمد العربي الخطابي، المرجع السابق، ص 167.

17- Bartolomé, Bennassar, **Recherche Sur Les Grandes Epidémies Dans Le Nord De L'Espagne à La Fin Du XVI Siècle**, Editions De L'EHSS, Paris, 2001, P45.

18- محمد العربي الخطابي، المرجع السابق، ص-ص 175-176.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

1321م أمرت بإبادة المجذومين ومصادرة ممتلكاتهم، ولم يتوقف الأمر عند هذا، بل راجت إشاعات في هذه الفترة مفادها أن سبب تفشي الطاعون يعود إلى تسميم آبار المياه في ستراسبورغ Strasbourg من طرف اليهود مابين عامي 748-759ه 1348- 1349، مما أدى إلى إطلاق حملة ضدهم.[19]

وعليه، فإن المصادر الأندلسية المعاصرة للوباء كانت أكثر عقلانية من المصادر الأوربية، فقد اعتمد مؤلفوها في أبحاثهم على طريقة الملاحظة والاستنتاج.

وبخصوص تشخيص مرض الطاعون ذكر لنا بن حجر العسقلاني أعراضه في كتابه "بذل الماعون في فضل الطاعون"، حيث قال:"... أن الطاعون حبة تخرج في الأرقاع[20]، وفي كل طي من الجسد، وهو غدة كغدة البعير تخرج في الآباط[21]..."، ومن أعراض الطاعون قرحات مفتوحة، بعدها تظهر الأعراض على المصاب كالحمى الملتهبة مصحوبة بالتقيؤ والغثيان وعطش شديد، وقد تبرز أعراض أخرى كالآلام في المعدة والأمعاء، ثم تتشكل أورام قيحية في أسفل الأذن والإبط والفخذ، وهي علامات دالة على هلاك المصاب[22].

وذلك ما ذهب إليه بن خاتمة عند عرضه لأوصاف الطاعون، حيث قال: "إنه حمى خبيثة دائمة عن سوء مزاج قلبي، يتبعها كرب وعرق يتبعه تشنج وبرد في الأطراف وضيق في النفس وقيئ مراري، وعطش شديد وسعال، وسواد في اللسان ..."[23]، وبنفس المواصفات ذكر لنا بن قيم الجوزية أوصاف الطاعون، فقال :"... قال الأطباء: إذا وقع الخراج في اللحوم الرخوة، والمغابن ، وخلف الأذن و الأرنبة، وكان من جنس فاسد، سمي طاعونا، وسببه دم رديء مائل إلى العفونة والفساد، مستحيل إلى جوهر سمي، يفسد العضو، فيحدث القيء والخفقان والغشي ..."[24]

19 - Carpentier Elisabeth, **Autour De La Peste Noir, Famines Et Epidémies Dans L'histoire du XIVe Siècle**, In : Annales Economies, Sociétés, Civilisations, 17e Année, N°6, 1962, p1080.

20- هي مطاوي الأعضاء، وفيها يتجمع العرق والوسخ.

21- بن حجر العسقلاني (الحافظ بن علي)، **بدل الماعون في فضل الطاعون**، تحقيق أحمد عصام عبد القادر، الرياض كاتب دار العاصمة، د ت، ص 96.

22- Bertolomé Bennassar, po.cit, p44.

23- محمد العربي الخطابي، المرجع السابق، ص 164.

24- ابن قيم الجوزية، المصدر السابق، ص 602.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

إن هذه الأعراض التي قدمتها لنا المصادر التاريخية، أوصاف الطاعون الدبلي أو الغدد الليمفاوية bubon، وهو أكثر أنواع الطاعون انتشارا، على أن بعض الأوصاف ينطبق على أصناف أخرى كما ذكر سابقا.

2. مواجهة الطاعون في بلاد الأندلس.

1.2الإجراءات الطبية:

لقد وجه الأطباء المسلمين جهدهم في بداية مواجهتهم للطاعون نحو الوقاية، حيث أرشدوا إلى تدبير شؤون التهوية الصحية في البيت بالطيوب الباردة والرياحين، ورشها بماء الورد الممزوج بالخل، فالروائح الزكية مهمة لأنها تطرد الأبخرة الضارة المسببة للطاعون، ومن اجل ذلك أحرقوا الأخشاب العطرية الطرية كالعرعار والدرداء وإكليل الجبل والمسك والأجاص، كما حث الأطباء على ضرورة غسل اليدين والقدمين بماء الورد والخل، واجتناب الاستحمام لأنه يفتح مسام البدن، فيصبح المرء عرضة لهجوم الجراثيم الضارة، وأوصوا كذلك بعدم ممارسة الرياضة لنفس السبب.[25]

ولم تقتصر حملات التوعية على تنظيف المساكن فقط، بل ركزت أيضا على الاهتمام بالمحيط، ونظافة الشوارع والساحات العمومية، واجتناب المياه الراكدة أو الملحة أو التي تغيرت رائحتها، لأن الهواء الفاسد هو مصدر الطاعون، كما أوصى الأطباء أيضا بالامتناع عن تناول لحوم الماشية التي وقعت فيها الموتان - أي الوباء- وإصلاح لحوم الحيوانات من الحيتان والدجاج والحجل، وكذا الكباش، وتجنب الأطعمة الرطبة، وعدم الامتلاء عند الطعام والشراب.[26]

أما في حالة الإصابة بالمرض، فلم يكن في وسع الطبيب إلا المداومة على الفصد، وهو إخراج الدم الفاسد بتشريط الورم الطعوني، ثم تنظيف الجرح على نحو تام، ويذكر بن خاتمة حالات صادفته مع بعض المرضى، ومن ذلك قوله:"... وقد وقف إليا رجل أتى في جماعة، نحو عشرين نسمة فرارا من هذا المرض، فأشرت بفصده في الحين، فأخرج له من الدم اثنتان وعشرون أوقية، كأن لم يكن به بأس...وإذا به قد عاد في مثل حاله أولا فأشرت عليه بحل موضع الفصادة، و إرسال الدم، فكان في ذلك بُرءُه..."[27] .

وعلى الرغم من شدة آلام المريض أثناء تشريط الورم، إلا أن ذلك قد لا يقدم أو يؤخر، خاصة إذا كان المطعون مصاب بالطاعون الرئوي الذي يعتبره الأطباء المعاصرون للوباء من اخطر أنواع

25 - روبرت .س. جوتفريد ،المرجع السابق، ص 175.

26- شخوم سعدي، **أصول الطب الأندلسي**، تلمسان، النشر الجامعي الجديد، 2019، ص 233.

27- محمد العربي الخطابي، المرجع السابق، ص 158.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الطواعين، فإبن خاتمة أخبرنا عن بعض الحالات حيث قال:"...وهذا الصنف من المرض لا علاج له، ولم أر أحد تخلص منه إلا شابا واحدا...فأشرت إلى فصده، فانقطع نفث الدم وتماثل حاله، فلما كان من الليل عاود النفث، فأشرت عليه من الغد بالفصد، فتخلص من المرض، وهذا من الندرة بحيث لم أر غيره ...."[28]، كما تصبح إصابة الطبيب الذي يقوم بالفصد شبه مؤكدة نتيجة تعامله مع المصاب على نحو مباشرة، ذلك ما أدى إلى هلاك العديد من أطباء الأندلس.

وأمام الحالات المستعصي، لم يكن في وسع الطبيب سوى العمل على الحد من آلام المطعون لتسكين أعراض المرض، فشاع استخدام دهن نبات يدعى **الريباس،** كان ينبت في رؤوس الجبال، بعدما لاحظ الأطباء ميزاتها المهدئة، فهو يخفض درجة الحرارة، ويحد من الآثار الجانبية للطاعون، كما كان على الطبيب أن يصرف همه إلى العناية بالقلب للتهدئة من آثار الخفقان، فيقوم بتغطية الصدر بخلطات طبية مكونة من الزيوت الطبيعية، وأحماض الليمون ،التفاح، والسفرجل التي تعمل على تبريد الصدر، وكذلك أوصى الأطباء بمضغ الرمان الحامض، وشم الورد والكافور.[29]

2.2 . قراءة الأذكار والأدعية.

إلى جانب هذه الإجراءات الطبية، لجأ عامة الناس أمام هول الطاعون إلى الأدعية التي من شأنها تجنب الإصابة به، والى الأذكار والتسبيح التي تحرس قائلها من كيد الشيطان، فتناقلوا قولا مأثورا عن الإمام الشافعي:"أحسن ما يداوى به الطاعون التسبيح، إن الذكر يرفع العقوبة والهلاك"[30].

أما العسقلاني، فقد ذكر أن الصلاة على الرسول أفضل وسيلة لمواجهة الطاعون، حيث قال :" اللهم صل على سيدنا محمد وسلم ونجنا بجاهه من طغيان الطاعون..."[31]، وفي نفس السياق، استغل الفقهاء الطاعون بوصفه كارثة إنسانية أثارت الخوف والذعر في نفوس الناس، للدعوة إلى احترام التعاليم الدينية، وترك المعاصي، بل ذهبوا أحيانا إلى ربط الوباء بفساد النظام الاجتماعي، وأن ذلك عقاب من الله للإنسان على انحرافه وتماديه في المعصية، وإعراضه عن شكر الله على نعمه[32].

3.2تعاطي عامة الناس مع الطاعون

28- نفسه.

29- احمد، العدوي، المرجع السابق، ص-ص35-36.

30 - إبن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ص 170.

31 - إبن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ص 371.

35- الحسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، الدار البيضاء (المغرب)منشورات الزمن، ، 2002، ص34 .

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ونتيجة لغياب أدوية فعّالة لمواجهة مرض الطاعون في هذه الفترة، أظهر الإنسان الأندلسي ردود فعل اكتنفها الاضطراب والارتباك، فهيمن على تفكيره هاجس الخلاص من ضغط الجائحة بأي وسيلة متاحة، وتحقيق الحد الأدنى للأمن بمفهومه العام، فكان طبيعيا أن ينساق وراء الفكر الخرافي، والتعلق بأحكام المنجمين والسحرة والمشعوذين، الذين ادعوا بسط سيطرتهم على الكوارث الطبيعية، فتعاطى الناس ضرب خط الرمل والقرعة، رغم التعليمات الشرعية بهذا الشأن، ظنا منهم أنها تطرد العوامل المسببة للكوارث والجوائح[33]، كما اندفع الناس البسطاء إلى الأولياء لطلب العون للبحث عن علاج للأوبئة والأمراض المستعصية[34].

لقد كشف استفحال الطاعون في الأندلس في النصف الأول من القرن الرابع عشر ميلادي عمق المضاعفات السلبية التي خلفها الوباء في المخيال الاجتماعي العام، لذلك تأثر العوام بالفكر الخرافي لتهدئة مخاوفهم من الطاعون، فاعتمدوا على السحر باستخدام تعاويذ، وطلاسم، وتمائم، خصوصا تلك المصنوعة من الذهب والفضة، وأخرى منحوتة بالياقوت الأزرق والعاج، وكان جميعها تعد واقيتا للصحة[35].

غير أن هذه الممارسات كانت مستهجنة من قبل العلماء والأطباء، لذلك دعى الشقوري أهل الدين والعقل ممن أسند إليه أمر من أمور المسلمين أن يمنع أهل الجهل من مضرة المسلمين بإعطاء الأدوية دون مشورة الطبيب، واستعمال الفصد كذلك، وما الذي يَضُر هؤلاء في ألا يُقدم على شيء من ذلك إلّا بنظر الطبيب.[36]

3. آثار الطاعون الجارف على بلاد الأندلس

تكاد تتفق مختلف الدراسات التاريخية التي تعرضت لعلاقة التأثير والتأثر بين الكوارث الطبيعية، وانتشار الأوبئة في هذه الفترة، وما تلاها، أن جهل الناس بأسباب الأوبئة ساعد على تسريع انتشارها، مما نتج عنه آثار مست جميع المجلات.

لم تسلم الأندلس من آثار المجاعات إبان القرن 8 هـ/14م التي ضربت أوربا [37]، إذ عصفت مجاعة قوية بسبب الجفاف في كل من ألميريا في عام 730هـ/ 1330م، وغرناطة عام 748هـ/ 1348، فترتب

33- عبدالهادي البياض، المرجع السابق، ص 153.

34- الحسين بولقطيب، المرجع السابق، ص 35.

35- روبرت .س. جوتفريد ،المرجع السابق، ص 134.

36- إبن الخطيب، المصدر السابق، ص 23.

37- Verlinden Charles, op.ct,p 103.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

عن ذلك غلاء وندرة المواد الغذائية ورفع الأثمان[38] بسب شلل الحياة الاقتصادية، خاصة النشاط الزراعي، وانتشار ظاهرتي الادخار والاحتكار، مما مهد الظروف لتفشي الأمراض والأوبئة، وفي هذا السياق ربط عالم الرياضيات والطبيب المغربي علي بن عبدالله بن هيدور الفاسي المتوفي في سنة 816هـ- 1413م أسباب تفشي الوباء بالغلاء، فقال: "إذا كان الغلاء وطال، واشتدت أسبابه لزم عنه الوباء"[39].

واللافت للانتباه أن الدراسة التي أنجزها **بارتلومي بن ناصر Bartolomé Bennassar** خلُصت إلى أن الطاعون الذي اجتاح أوربا، وبلاد الغرب الإسلامي لعب دورا هاما في إحلال التوازن بين العرض والطلب، فمقابل النمو الاقتصادي البطيء، هناك نزيف ديمغرافي، الذي يعد من أهم نتائج الطاعون، فحسب المصادر التاريخية أن نتائجه كانت أشد في صفوف شريحة العوام التي تمثل قاعدة هرم المجتمع، ومن سلم من الهلاك عاش محنة الجوع، وذلك ما رصده لنا ابن خاتمة بقوله: " فأول ما بدأ (الطاعون) بمساكن المساكين ومنازل الضعفاء ، ثم اتصل بمن يليهم، وأنهى ما بلغ إليه عدد من هلك فيه في يوم بطول هذه المدة(من 1جوان 1348 إلى يناير1349م) نحو سبعين نسمة، وأين هذا العدد ممن بلغنا من غيره من بلاد المسلمين والنَّصارى، فقد بلغنا أنه هلك في يوم واحد(الرابع والعشرين من شهر يونيو) بتونس ألف نسمة وخمس مائة نسمة، وبجزيرة مَيُورقة يوم أربعة وعشرين من شهر مايُه ألف نسمة ومائة نسمة وخمسون نسمة، وكذلك كان الأمر بسائر البلاد صغيرها وكبيرها"[40]، وفي سياق حديثه عن ضحايا الطاعون الجارف، يذكر لنا لسان الدين ابن الخطيب أن الوباء حصد أرواح مجموعة من علماء الأندلس[41] ،أما ابن خلدون الذي فقد أبويه بسبب الطاعون، فقد لخص حجم الخسائر في قوله :"هذا ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي طوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها..."، وفي ذات

38- وصلت صحفة القمح لتسعين دينارا، ومد القمح خمسة عشر درهما،والدقيق أربع أواقي بدرهم، واللحم خمس أواقي بدرهم، والزيت أوقيتان بدرهم، وعدمت الخضربأسرها، (ينظر إلى: عبدالهادي البياض، المرجع السابق، ص34).

39- نفسه، ص 43.

40- إبن الخطيب، المصدر السابق، ص 44.

41-نذكر منهم أحمد بن محمد بن علي بن أحمد الأموي الذي توفي بملقا أيام الطاعون الكبير، ومحمد بن أحمد بن محمد بن عياض حفيد الإمام القاضي عياض، قاسم بن يحيى بن محمد الزَّروالي المالقي، وغيرهم من العلماء الذين فقدتهم بلاد الأندلس(ينظر:إبن الخطيب، المصدر السابق، ، ص- ص 86-89)

إبن الخطيب، المصدر السابق، ، ص-ص، 86-89.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

السياق، يذكر صاحب كتاب "الموت الأسود جائحة طبيعية وبشرية في علم العصور الوسطى"، أن العالم الإسلامي سقط صريعا أمام الموت الأسود (الطاعون)، فقد أتى على ثلث سكانه، وربما هلك ما يتراوح بين أربعين بالمائة إلى خمسين بالمائة من سكان الحضر[42].

ومن خلال هذه الأعداد، أن الطاعون قضى بنسبة كبيرة على الأرواح في الحواضر والمدن الكبيرة الواقعة على الطرق التجارية. وبما أن حركة التبادل التجاري اعْتُبرت من بين أسباب تفشي الطاعون، فقد عرفت ركودا قاتلا مع ظهور الوباء، ذلك أن أهالي المناطق غير الموبوءة كانوا يمنعون أهالي المناطق الموبوءة من الدخول إلى بلادهم خوفا من نقل العدوى إليهم.

تزامن انتشار المجاعات والأوبئة في الأندلس مع ظهور الفتن والصراعات، فعلى سبيل المثال شهدت مملكة غرناطة في العقد الرابع من القرن الرابع عشر ميلادي معركة طريف بين المسلمين والنصارى في أيام السلطان النَّصْري الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل، قُتل فيها عدد من علماء الأندلس من بينهم والد لسان الدين بن الخطيب، كما أن الوباء الجارف الذي وقع في سنة 748هـ- 1348م أعقبته صراعات داخلية أيام أبو عبدالله محمد بن أبي الوليد إسماعيل، الملقب بالغني بالله (محمد الخامس) حكم من 755هـ- 1355 الى غاية 793هـ- 1494م حيث كثر الثائرون عليه من أهل بيته[43]، وبالتالي نتساءل من خلال ما سبق عن مدى نجاح بعض الثورات في الاستيلاء على الحكم في مراحل ضعف الدولة المتزامن عادة مع انتشار الكوارث الطبيعية والأوبئة التي تعصف بأرواح عدد كبير من السكان .

الخاتمة

الطاعون الجارف هو سلسلة من الطواعين الثلاثة الغددي والرئوي والتسممي، والتي اجتاحت العالم بين سنتي 1347-1351م، فأفنت ثلث سكانه، خاصة وأن الأوبئة عادة ما كانت مقرونة بالمجاعات والقحوط، مما زاد من تفاقم حدة النزيف البشري، كما كانت الطواعين سببا في متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية.

كما يحتل الطاعون الأسود الذي تفشى في النصف الأول من القرن الرابع عشر ميلادي المرتبة الثانية في الجوائح الطاعونية من حيث الخسائر البشرية (بعد طاعون جاستنيان 541-542م، وما تلاها من طواعين)، ذلك ما أدى إلى تشكيل سلسلة من الطواعين امتدت إلى غاية القرن الثامن عشر.

42- روبرت .س. جوتفريد ، المرجع السابق، ص 78.

43- طه عبدالمقصود عبدالحميد عُبيَّة، **موجز تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة (92-897هـ/711- م1492)**، غير محدد، ص-ص 174-175.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

كان للطاعون أثر كبير في صياغة ذهنيات خرافية وسلوكات سحرية ارتبط بها الإنسان في الأندلس، تجلى ذلك في عجزه عن إدراك العلاقات السببية المؤثرة في حدوث الأوبئة.

زرع الطاعون رعبا لدى الناس، فصار الأب يفر من ابنه، والزوجة من زوجها، والأخ من أخيه، فالجميع شملهم الفزع من وباء يتعذر تفسيره، لذلك دأب السكان على التأريخ بالطاعون، وذلك بسبب ارتفاع الخسائر البشرية والمادية.

المصادر والمراجع

أولا: باللغة العربية

1. المصادر

- ابن قيّم الجوزية(شمس الدين أبي عبدالله بن أبي بكر بن أيوب)، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 2009،
- لسان الدين بن الخطيب (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن الخطيب السلاماني)، **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، (تح حياة قارة)، الرباط، منشورات دار الأمان، ، 2015،
- ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبوزيد الحضرمي)، تاريخ ابن خلدون المسمى، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم في ذوي الشأن الأكبر**، ج1 تحقيق خليل شحادة، بيروت دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2001
- بن حجر العسقلاني(الحافظ بن علي) **بدل الماعون في فضل الطاعون**، تحقيق أحمد عصام عبد القادر، الرياض كاتب دار العاصمة، د ت.

2- المراجع

- روبرت .س. جوتفريد ، **الموت الأسود جائحة طبيعية وبشرية في عالم العصور الوسطى**، (تر: أبو ادهم عبادة كحيلة)، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ،2017، ص-ص 69-74.
- عبدالهادي البياض، **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس(ق6-8ه/12-14م)**، بيروت دار الطليعة، ، 2008
- شخوم سعدي، **أصول الطب الأندلسي**، تلمسان، النشر الجامعي الجديد، ، 2019

الحسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، الدار البيضاء (المغرب)منشورات الزمن، 2002

- طه عبد المقصود عبد الحميد عُبيَّة، **موجز تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة (92-897ه/711- م1492)**، غير محدد،
- محمد العربي الخطابي، **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية** (دراسة وتراجم ونصوص)، ج2، بيروت، درا الغرب الإسلامي، 1988.

ثانيا:باللغة الأجنبية

1.المراجع

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

- Bartolomé, Bennassar, **Recherche Sur Les Grandes Epidémies Dans Le Nord De L'Espagne à La Fin Du XVI Siècle**, Editions De L'EHSS, Paris, 2001.

2.الدوريات

Le Goff Jacques, Biraben Jean-Nöel, (**La peste dans de Haut Moyen Âge**), In: *Annales. Économies, Sociétés, Civilisations* , N. 6, 24e année, 1969. pp. 1484-1510.

Verlinden Charles **,(La grande peste de 1348 en Espagne. Contribution A L'étude De Ses Conséquences Economiques Et Sociales),** In: Revue Belge De Philologie Et D'histoire, Tome 17, Fasc. 1-2, 1938, Pp 103-146.

Carpentier Elisabeth, **(Autour De La Peste Noir, Famines Et Epidémies Dans L'histoire du XIVe Siècle)**, In : Annales. Economies, Sociétés, Civilisations, , N°6, 17e Année 1962, Pp1062-1092.